دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	النسيج العمراني الجديد بمدينة القيروان خلال الحقبة الاستعمارية 1881 - 1956
المصدر:	مجلة روافد
الناشر:	جامعة منوبة - المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر
المؤلف الرئيسي:	الرمضاني، عامر
المجلد/العدد:	ع14
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2009
الصفحات:	343 - 365
رقم MD:	646715
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	مدينة القيروان، الاستعمار الفرنسي، تخطيط المدن، الهندسة المعمارية، البناء و التشييد
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/646715

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

النسيج العمراني الجديد بمدينة القيروان خلال الحقبة الاستعمارية 1881 – 1956

عامر الرمضاني

باحث – تونس

لئن أبقى الاستعمار على الهياكل المحلية والبنى الموجودة بالبلاد خلال الفترة التي سبقت إمضاء معاهدة الحماية فإنه قد سعى بالمقابل إلى تفكيكها وتهميشها وذلك من خلال تركيز نظم وآليات تسيير موازية لها تعمل على توطيد هيمنته وتأكيد تفوقه وانتصاره [1].

هذه السياسة التي ترمي إلى تفويض كل موروث محلي لم تستهدف الهياكل السياسية والإدارية أو البنى الاقتصادية والاجتماعية فحسب، بل طالت كذلك مختلف الأسس الحضارية لعل أبرزها النظم العمرانية لأهم المدن التونسية.

فمنذ انتصاب الحماية، عمد المستعمر إلى زعزعة البنى الحضرية لأهم المراكز المدينية وذلك بتأسيس أنظمة عمرانية جديدة مجاورة للأنظمة المحلية وتقطع معها من حيث الطابع والمعمار ومن التركيبة السكانية وكذلك الجو العام ونمط العيش [2].

مثلت هذه الفضاءات الحضرية الجديدة أهم الأدوات والآليات التي اعتمدها المحتل لإخضاع المدن ولحسم الصراع الحضاري لصالحه [3]. ولئن أفضى إحداثها إلى بروز ضرب من الازدواجية والثنائية على المشهد

---

[1] محجوبي (علي)، انتصاب الحماية الفرنسية بتونس، تعريب عمر بن ضو و، حليمة القرقوري وعلي المحجوبي، دار سيراس النشر، تونس 1986 ص 110.

[2] Beaujeu-Garnier (J.), Traité de Géographie urbaine, Armand Colin, Paris, 1963, p.84.

العمراني، فقد ترتبت عنها كذلك تحولات عميقة وانقلابات جذرية في المراكز والأدوار. فبقدر ما تدعمت أهمية هذه الفضاءات الجديدة التي استطاعت أن تتحول إلى مراكز المجالات الحضرية، تدحرجت الفضاءات الأصلية إلى مرتبة المدن التاريخية.

وسنحاول من خلال هذا المقال تبين أهم التحولات التي طرأت على النسيج الحضري لمدينة القيروان خلال الحقبة الاستعمارية. وسنهتم تحديدا بإعادة تشكيل الهيكلة العمرانية الجديدة التي صاغها المستعمر في إطار مواصلة مشروعه الاستعماري الرامي إلى تذويب الخصوصيات الحضارية لهذه المدينة "المقدسة" والذي بدأ يوم 26 أكتوبر 1881 تاريخ سقوطها بيد الجيوش الفرنسية التي عمدت لحظة احتلالها المدينة إلى انتهاك حرمة مساجدها وزواياها وفتح أبوابها لدخول غير المسلمين بعد منع دام عدة قرون [4]. أما هدفنا فهو إبراز بعض الجوانب والمكونات العمرانية المغيبة والمنسية من تاريخ المدينة الحضري الذي لا يزال مختزلا في الفضاء التاريخي أي "المدينة العربي".

وسنتطرق في مستوى أول من هذا العمل إلى إبراز مميزات ومكوناته النسيج الحضري لمدينة القيروان قبيل انتصاب الحماية. أما في مستوى ثان سنحاول إعادة تشييد الفضاء العمراني الجديد. وسننتهي في مستوى ثالث وأخيرا إلى رصد مختلف التداعيات التي نتجت عن ظهور هذا الفضاء ضمن النسيج الحضري.

I- مميزات النسيج الحضري لمدينة القيروان ومكوناته قبيل انتصاب الحماية:

---

[3] Huetz De Lemps (X.), «La ville européenne outre mer», In, l'Histoire de l'Europe urbaine. Vol II, Editions du Seuil, Paris, 2003, p. 271. أنظر كذلك

Coquery Vidrovitch (C.), La ville européenne outre mers : Un Modèle Conquérant ? (XV-XXe Siècles), l'Harmattan, Paris, 1996.

[4] كانت القيروان تعد، منذ العهد الموحدي، المدينة الوحيدة بالايالة التونسية التي يمنع على غير المسلم دخولها أو الاقتراب من أسوارها؟ وقد جرت العادة على من يريد دخولها من الأوروبيين أن يحمل معه مرسوم ممضيا من طرف الباي ومصادقا عليه من قبل رجال الدين والشرع بالمدينة.

كثيرا ما قدمت مدينة القيروان في كتابات الزوار والرحالة الأوروبيين الذين تمكنوا من دخولها سواء في بداية أو في أواسط القرن التاسع عشر كأهم مدن الإيالة التونسية على الإطلاق من حيث محافظتها على طابعها العمراني العربي الإسلامي الصرف ومن حيث نظافة طرقاتها ومتانة مبانيها [5].

وتعد القيروان ثاني مدن الإيالة بعد الحاضرة من حيث شساعة نسيجها الحضري الذي تميز بتنوع مشاهده المعمارية وتعدد وظائفه الداخلية. حيث استطاع أن يجمع بين الفضاءات التجارية والتجمعات السكنية والمعالم الدينية التي قارب عددها نحو الخمسة وخمسين زاوية وعشرين مسجدا ستة منها معدة لخطبة الجمعة [6].

مشهد عام لمدينة القيروان

[5] نذكر على سبيل المثال

Guérin (V.), Voyage archéologique dans la Régence de Tunis, Pion, Paris, 1862, p. 322.

Monchicourt (Ch.), Documents historiques sur la Tunisie ; relations inédites de Nyssen, Philippi et Caligari (1788, 1829, 1834), Société d'éditions Géo. Maritimes et Coloniales, Paris, 1928.

[6] Pélissier (E), Description de la Régence de Tunis, Editions Bouslama, Tunis 1980, p 118.

شيد هذا النسيج وفق قواعد ومرجعيات عربية إسلامية صرفة [7]. وقد اختزل في مكونين رئيسيين تفصل بينهما الأسوار وهما المدينة والأرباض.

فبالنسبة إلى المدينة أو "المدينة المحوطة" فهي تقع داخل الأسوار وقد استأثرت بأغلب الأنشطة التجارية واحتضنت أبرز التشكيلات الاجتماعية وأرقى التجمعات السكنية وأهم المؤسسات الدينية.

استندت المدينة في تنظيمها إلى تصورات استجابت في مضامينها إلى اعتبارات اقتصادية واجتماعية بالأساس. فبواسطها توطنت الأسواق المخصصة لاحتضان مختلف الأنشطة الحرفية والتي توزعت وفق قواعد العرف الجارية في تنظيم المهن والتي تجعل لكل حرفة سوقا خاصا به.

امتازت هذه الأسواق بوفرة منتوجاتها وجودتها وبحركيتها الدائمة والنشيطة [8]. وقد تمثل أهمها في سوق الربع والعطارين الذي يعد من أقدم الأسواق التي أقيمت بالمدينة وسوق البلاغجية الذي شيده الباي حسين بن علي ليختص في صناعة البلغة الصفراء التي لا يوجد لها نظيرا داخل الإيالة.

---

[7] حول القواعد والمرجعيات التي تضبط بناء المدن العربية الإسلامية أنظر

RAYMOND (A), Grands villes arabes à l'époque ottomane, Sindbad, Paris, 1985
BOUHDIBA (A) CHEVALIER (D) La ville arabe dans l'Islam, Tunis, 1978
MARÇAIS (G), L'urbanisme musulman, mélange d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman, Aller, 1957.

[8] GUERIN (V.), Voyage archéologique... Op. cit., p.331.

سوق الربع: أهم الأسواق وأهمها التي تعكس أهمية المدينة تجاريا

وتتدرج من حول هذه الأسواق عبر شبكة من الأزقة الضيقة والملتوية الأحياء السكنية التي غطت باقي النسيج الحضري للمدينة وتوزعت في شكل وحدات سكنية صغرى تعرف كل وحدة بالحومة. هذه الحومة لم يتجاوز مجالها عادة النهج الواحد وغالبا ما كانت العائلات القاطنة بها تنتسب إلى نفس الأصول مثال ذلك: (حومة القرامطة، حومة الهواشم، حومة الخضراوين ...)

انتشرت هذه الحومات داخل المدينة وفق ترتيبية صارمة ودقيقة أساسها الجاه والثروة والتمايز العرقي. فانطلاقا من وسط المدينة باتجاه الجنوب تركزت أهم الأحياء السكنية والتي مثلت النواة الأولى للنسيج الحضري. تميزت هذه الأحياء بطابعها الارستقراطي [9]. إذ احتضنت أهم العائلات القيروانية التي عرفت بكونها بيوت علم وفضل وامتازت – بالإضافة إلى ثراءها وعراقتها – برفعة حسبها ونسبها. [10] فهذه العائلات إما ذات نسب شريف مثل عائلة العواني، أو هي سليلة العرب الأوائل الفاتحين مثل عائلة صدام اليمني، عائلة عظوم التميمي، عائلة دحمان الغساني، عائلة الرماح القيسي، أو أنها عائلات دينية

[9] Idem, p. 332.

[10] ابن أبي ضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الجزء السابع، الدار التونسية للنشر 1990، ص 20.

انتسبت إلى أهم الزوايا الموجودة بالمدينة مثل عائلة الفاسي، عائلة الوحيشي، عائلة بن خوذ البغدادي وعائلة المرابط الغرياني [11].

ساحة عطاء الله أحد أهم الأحياء السكنية التي مثلت النواة الأولى للنسيج الحضري.

اختزلت هذه الأحياء إداريا في وحدات ثلاث تعرف كل وحدة بالحومة وهي حومة الجامع التي استمدت هويتها من جامع عقبة بن نافع وحومة الأشراف التي انتسبت إلى السادات الأشراف وأخيرا حومة الممر.

أما بخصوص الأرباض، فقد امتدت خارج الأسواق واختزلت في حومتين هما حومة الجبلية الواقعة شمال غربي المدينة والتي ضمت على سبيل الذكر ربض زواغة، ربض الفاسي، ربض الصفيحة وحومة القبلية الواقعة جنوب غربي المدينة والتي احتوت على سبيل المثال ربض اللصيص وربض الحديد. [12]

[11] رقية (مراد)، "الوضعية البشرية والجبائية لسكان مدينة القيروان خلال النصف الثاني من القرن 19"، المجلة التاريخية المغاربية، عدد 53 – 54 جويلية، 1987، ص 87 – 88.

[12] Kerrou (M.), «Quartiers et Faubourgs de la Medina de Kairouan, des Mots aux Modes de Spatialisations», Revue Genèses, n° 33, Décembre 1998, p. 65.

ربض الجبلية الواقع شمال غربي المدينة

خصصت هذه الأرباض لاحتضان الأنشطة التجارية البسيطة والمجموعات البشرية ذات الأصول المتواضعة. ويعود ظهورها إلى فترات متأخرة وحديثة. حيث ارتبطت في نشأتها بحركة نزوح المجموعات ذات الأصول الريفية والقبلية وخصوصا عرب جلاص وبتوافد البراينية أصلي القرى والأوطان التونسية المجاورة إلى المدينة. وقد مثلت هذه الأرباض محطة أولية وأساسية لانتقال هذه الجماعات من طور البداوة والترحال إلى طور التمدن والاستقرار.

مدينة القيروان سنة 1888

Source: Guides Joanne, Algérie et Tunisie, Hachette, Paris, 1888

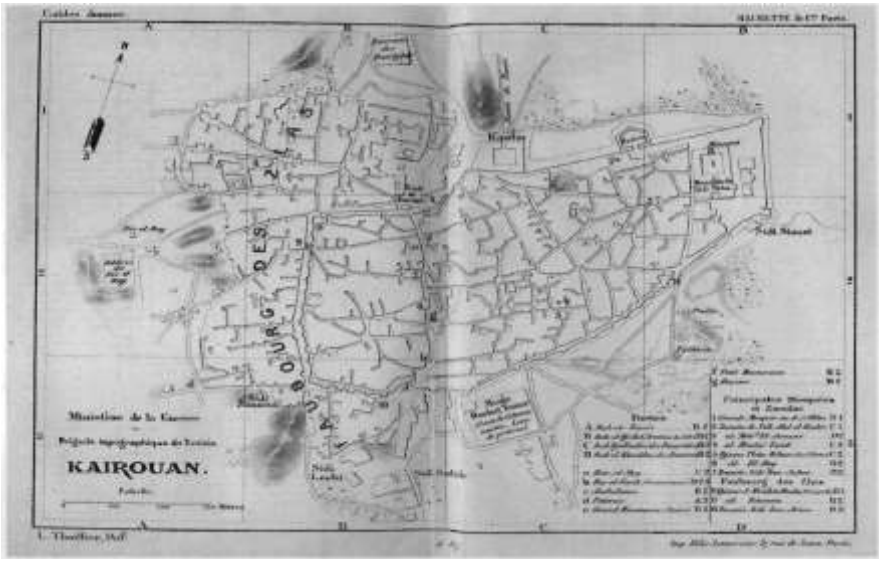

II- توسع النسيج الحضري ومراحل تشكل الفضاء العمراني الجديد غداة انتصاب الحماية:

شهد النسيج الحضري لمدينة القيروان إثر انتصاب الحماية ظهور فضاء جديد يجاور الفضاء التاريخي ويختلف عنه من حيث التخطيط والتنظيم. خضع هذا الفضاء من حيث تشييده وتجهيزه إلى تمثلات أوروبية بحتة. وقد عرف بالمدينة الفرنسية [13] ونعت بالقيروان الجديدة (14) [14]. غير أن أهم تسمية ارتبطت به هي: "الحي الأوروباوي".

[13] Saladin (H.), Tunis et Kairouan, H. Laurens, Paris, 1908, p. 108.
[14] Loth (G.), La Tunisie et l'œuvre du protectorat français, Ch. Delagrave Paris, 1907, p. 209.

مشهد عام للفضاء العمراني الجديد: المدينة الأوروبية

امتد هذا الحي جنوب الأسوار وقد مرت عملية بنائه بمرحلتين رئيسيتين. ففي المرحلة الأولى، شهد هذا الحي نشأة نواته الأولى. أما في المرحلة الثانية، فقد توسع هذا الحي وارتسمت حدوده النهائية.

1- نشأة النواة الأولى للحي الأوروباوي:

ظهرت النواة الأولى للحي الأوروبي ضمن النسيج الحضري لمدينة القيروان إثر مغادرة بعض الأجهزة والمؤسسات المدنية الاستعمارية لوسط المدينة وانتصابها خارج باب الجلادين بربض الظهرة الذي تم حل مشيخته وإلحاقه بحومة القبلية قبيل انتصاب الحماية.

بدأت هذه النواة في التشكل منذ سنة 1884 تاريخ تشييد أول مبنى مدني وهو مكتب البريد والبرق.

وتدعمت سنة 1892 ببناء عدة منشآت مدينة أخرى أهمها المراقبة المدنية التي خيرت النزول بالأطراف الجنوبية الشرقية لحومة القبلية.

لكن إذا ما فسر خروج هذه المؤسسات في وسط المدينة على أنه إجراء حتميا اضطرت السلط الاستعمارية لاتخاذه بعد أن أدركت عجز هذا الفضاء على احتضان مؤسساتها واستيعاب مختلف مشاريعها ومخططاتها العمرانية التي أرادت إنجازها بداخلة [15]. وإذا ما اعتبر الفضاء الواقع جنوب الأسوار – رغم مساوئه المتعددة – كأكثر المجالات تهيؤا وقدرة على احتواء كل أشكال التوسع الحضري مقارنة بالنواحي الأخرى التي يصعب اختراقها والتوطن داخله [16]. فكيف نفهم إصرار أهم مؤسسة استعمارية وهي المراقبة المدنية على النزول بأطراف ربض يغلب عليه طابع التريف؟ لماذا كل هذا الحرص من قبلها على التوطن بركن مهجور سيما وأنها رمز السلطة السياسية الحقيقية بالمدينة وبإمكانها النزول بأي مكان تشاءه؟ لماذا لم تحذو بقية الأجهزة الاستعمارية الأخرى أي انتزاع قطعة أرض بيضاء تسع الهكتارات؟ هل يمكن أن يكون هذا التوطن هو توطن اضطراري واعتباطي كان دافعه التعجيل بتشييد مبنى للمراقبة المدنية خصوصا وأن جميع محاولات الإدارة العامة التي بدأت منذ سنة 1888 لا تزال هذه المؤسسة بوسط المدينة قد باءت بالفشل وبالتالي فإن مشروع إنجاز هذا المبنى لم يعد يتحمل المزيد من التأجيل والانتظار؟ أم أن هذا التوطن هو توطن اختياري ومدروس يرمي المستعمر من خلاله إلى إبراز تفوقه وتأكيد انتصاره؟

في اعتقادنا، يتضمن نزول المراقبة المدنية بهذا العقار المهجور – إذا ما حددنا موضعه وتعرفنا على مالكه الأصلي – دلالات رمزية عميقة. فهذا العقار يحتل موضعا مرتفعا نسبيا مقارنة بالنواحي المحيطة به. بل ويمكن اعتبار أعلى نقطة داخل الفضاء الممتد جنوب الأسوار وحتى داخل النسيج الحضري بأكمله. وبالتالي فإن توطن هذه المؤسسة الاستعمارية بهذا الموضع من شأنه أن يوطد هيبتها ويزيد من علو منزلتها ويمكنها من إحكام قبضتها على المجال الحضري ومراقبته مراقبة دقيقة وصارمة. كما أن هذا العقار هو في الحقيقة ملك للحاج حسين بن المسعي قايد أولاد إيدير من قبيلة جلاص وأحد رموز المقاومة التي

---

[15] لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، أنظر بحثنا الذي أنجز لنيل شهادة الماجستير تحت عنوان: مدينة القيروان خلال الفترة الاستعمارية: التحولات المجالية والاجتماعية (1881 – 1956). إشراف الأستاذ حبيب القز دغلي، كلية الآداب والفنون والإنسانيات – منوبة، السنة الجامعية 2007 – 2008.

[16] المرجع نفسه، ص 34.

حاولت التصدي لزحف الجيوش الفرنسية القادمة لاحتلال المدينة المقدسة سنة 1881. وقد اضطر هذا القائد بعد فشل مقاومته إلى التراجع والتوجه مع بقية المقاومين إلى طرابلس حيث توفى. وكأن فرنسا ومن خلال إرغامها لهذا العقار دون سواه لاحتضان مؤسستها السياسية أرادت – دون أدنى شك – تحدي هذا القائد والتأكيد على أن قوتها وإرادتها قادرة على أن تطول وتخضع الأملاك حتى وإن أفلت من قبضتها العباد.

عموما، اقتصرت حركة التشييد خلال هذه المرحلة على إحداث بعض المباني المدنية، وشملت إلى جانب بناء كل من مكتب البريد والتلغراف ومقر المراقبة المدنية، إقامة رحبة النعمة (1888)، المسلخ البلدي (1891)، السجن المدني (1892) ومصلحة الجسور والطرقات (1894).

وبالتوازي مع اقتصارها على بعض المنشآت العمومية، تميزت عملية التوسع بضعف امتدادها. حيث انحصرت مواطن تركز أغلب هذه المنشآت قبالة باب الجلادين.

وتعود محدودية هذا التوسع في الحقيقة إلى ضعف الحركة الاستعمارية بالمدينة خلال هذه المرحلة. فالحضور الأوروبي كان محدودا جدا إذ اقتصر على بعض عشرات الأفراد. [17] أما المؤسسة البلدية التي بعثت يوم 2 جوان 1887 لتتولى تنظيم المجال وتتحكم في تطوره فقد تميزت منذ ميلادها بالقصور والعجز. حيث كانت تشكو ضعفا في مواردها المالية وتعاني من احتدام أجواء التنازع والتنافر بين أعضاء مجلسها البلدي الذي خضع في مستوى تركيبته التمثيلية قبل إعادة هيكلتها لسيطرة الأعضاء المسلمين .[18]

---

[17] Poiré (E.) La Tunisie Française, Pion, Paris, 1892, p. 158.

[18] بموجب الأمر العلي المؤرخ في 2 جوان 1887 والقاضي ببعث مؤسسة بلدية بمدينة القيروان تم تحديد تركيبة مجلس هذه المؤسسة ب10 أعضاء توزعوا على مجموعتين هما: مجموعة الأهالي المسلمين وقد تكونت من 6 أعضاء من بينهم قايد المدينة سي محمد المرابط الذي شغل منصب رئيس البلدية. ومجموعة الأوروبيين التي ضمت 4 أعضاء من بينهم السيد اثنوزى (Athenosy) الذي شغل خطة نائب رئيس هذه المؤسسة.

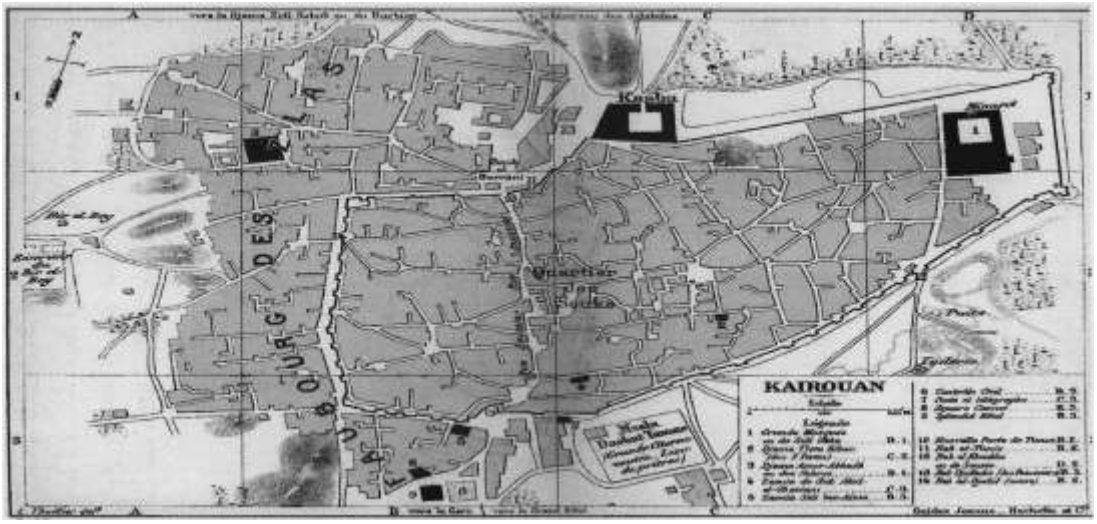

مثال مدينة القيروان سنة 1905

Source: Guides Joanne, Algérie et Tunisie, Hachette, Paris, 1905.

2- تطور النواة وبروز الحي الأوروبي كمعطى حضري جديد:

تتوافق بداية تطور النواة الأولى للحي الأوروبي خلال هذه المرحلة مع إعادة هيكلة تركيبة المجلس البلدي بتاريخ 5 ماي 1896 بالشكل الذي يضمن للأعضاء الفرنسيين الموجودين به سيطرة مطلقة على آليات القرار داخل المؤسسة البلدية [19]. وهو ما يعني بالتالي تطويع هذا الجهاز الإداري لخدمة المشاريع الاستعمارية والمتمثلة أساسا في تأسيس فضاء حضري جديد تتوفر به كل مستلزمات الحياة العصرية التي يحتاجها الأوروبيون المستقرون حديثا بالمدينة والتي ما انكفت أعدادهم تتزايد منذ أواخر القرن التاسع عشر [20].

[19] بمقتضى الأمر العلي المؤرخ في 5 ماي 1896 والذي ينص على صياغة مجلس بلدي جديد، ثم إدراج ضمن التركيبة التمثيلية عضوا إسرائيليا وتعزيز التمثيل الأوروبي ليتساوى مع نظيره المحلي بتسمية عضوين جديدين. لكن ورغم هذا التساوي الشكلي في عدد الأعضاء (6 أعضاء داخل كل مجموعة)، فقد خضع هذا المجلس لهيمنة المجموعة الأوروبية التي ضمت ماهية المجلس (نائب رئيس) الذي أصبح الرئيس الفعلي يتمتع بصلاحيات مطلقة في فرض الأوامر وسن القرارات.

[20] Rey (R.), Voyage d'étude en Tunisie (10-28 Avril 1900), Ch. Delagrave, Paris, 1900, p. 83.

في الحقيقة، كان لهذه المؤسسة الحضرية الجديدة دور كبير في الانتقال بالنسيج الحضري لمدينة القيروان من فضاء أحادي البنية يختزل في المدينة وأرباضها إلى فضاء مزدوج التركيبة والمكونات وذلك من خلال إشرافها بصفة مباشرة على تطور هذا الحي الأوروبي وبروزه كمعطى حضري جديد مكتمل وقائم بذاته يجاور الفضاء التاريخي ويقطع معه من حيث الطابع والمعمار وكذلك من حيث الجو العام ونمط العيش.

بدأ هذا الفضاء العصري في التطور ليأخذ هيئته الجديدة ويتحدد حجمه النهائي منذ مستهل هذه المرحلة. فقد توسعت نواته الأصلية نحو الشرق حيث اكتسحت كامل ربض الأحمر وامتدت جنوبا خارج باب الظهرة وانحصرت بتالي حدوده النهائية بين باب الجلادين وأسوار المدينة شمالا ومحطة القطار جنوبا. وبين مبنى السجن المدني غربا وطريق سوسة (الطريق رقم 32) غربا [21].

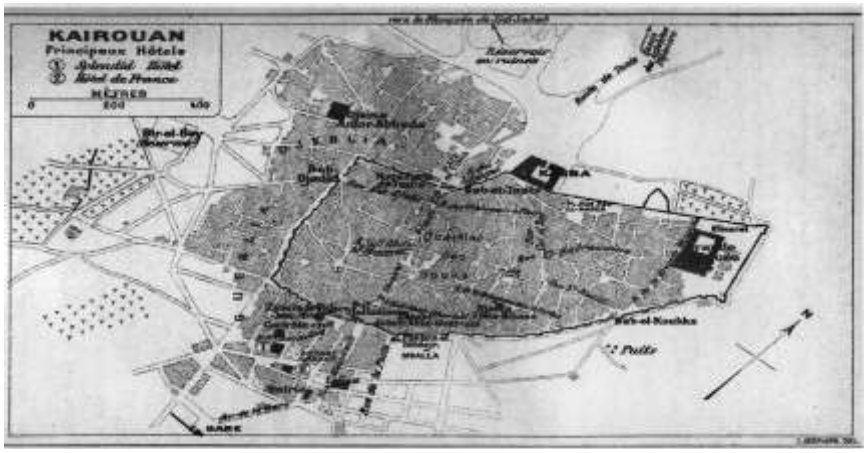

مثال مدينة القيروان سنة 1916

Source: Guides Joanne, Algérie et Tunisie, Hachette, Paris , 1916

شهد هذا الفضاء – بصفة مبكرة – أشكال تنظيم حديثة وبرامج تهيئة وتحسين عصرية لم يعهدها النسيج الحضري للمدينة من قبل. فمنذ سنة 1896 خضع إلى أول مثال تصفيف بموجبه

[21] أرشيف إدارة الأشغال، ملف تهيئة الفضاء الواقع جنوب الأسوار، مراسلة ناظر الأشغال بالمدينة إلى مدير الأشغال العامة بتاريخ 25 جويلية 1896.

تشكل هيكله الأساسي وحدد محوره الرئيسي الذي تمثل في شارع ماسيكو [*] Avenue Massicault الممتد من باب الجلادين شمالا إلى شارع المحطة جنوبا. اعتبر هذا الشارع مركز هذا الفضاء وقلبه النابض حيث تجمعت به أغلب الفضاءات التجارية والخدماتية وتركزت به الساحات والحدائق العمومية. [22]

شارع ماسيكو: مركز الحي الأوروبي وقلبه النابض

وبالتوازي مع تحديد محاوره ورسم طرقاته، تمت تسوية أجزائه (إزالة الربوات وردم المنخفضات) وتجفيف المستنقعات ومحو المزابل ونقل كل ما من شأنه أن يشكل خطرا على التجمعات السكنية الواقعة به مثل أفران الجير والشواط والمنادر خارج الدائرة البلدية.

وبالإضافة إلى تهيئته، تم تجهيزه بالمرافق الأساسية التي تمليها الحياة العصرية مثل إحداث شبكة تطهير تحتية تعوض المجاري المكشوفة وتزويده بالماء الصالح للشراب والتنوير العمومي وكذلك تعبيد وترصيف شبكة الأنهج والطرقات التي توزعت داخله.

III- التداعيات الناجمة عن توسع النسيج الحضري: الفضاء الأوروبي الجديد مركز المدينة

[*] ماسيكو:Massicault شخصية سياسية فرنسية شغلت منصب مقيم عام بتونس بين سنتي 1886 و 1896.

[22] L'Union Kairouanaise, le 6 Décembre 1908.

ترتب عن هذا التوسع الذي طرأ على النسيج الحضري لمدينة القيروان جملة من التحولات أصبح بموجبها الفضاء الأوروبي الجديد مركز المدينة وقلبها النابض.

لقد تحول هذا الفضاء إلي مركز إداري هام توطنت داخله جميع الأجهزة والمؤسسات المدنية الاستعمارية التي اعتبرت الهياكل الإدارية الرسمية لهذه المرحلة الحاسمة من تاريخ المدينة. خصص لهذه المؤسسات مباني جديدة لئن راعت من حيث طابعها الهندسي الطابع المعماري المحلي فإنها جسدت من حيث ضخامتها هيمنة والمحتل قوته. فهذه المراقبة المدنية رمز السلطة السياسية الحقيقية قد نزلت بنهج الظهرة داخل مبنى حصين. وتلك المحكمة رمز السلطة القضائية قد تركزت بوسط شارع إتيان Rue Etienne [23] (نهج القاضي النعمان حاليا) داخل مبنى فسيح استجاب إلى حاجيات الموظفين. وبين هذه وتلك انتصب بشارع الثكنة مبنى المعايير والدفوعات (القباضة المالية) التي أنهكت كاهل الأهالي بالأداءات.

مبنى القباضة المالية

هذا وقد تدعمت أهمية هذا الفضاء إداريا، إثر نجاحه في جذب عديد المؤسسات التقليدية واستقطابها لعل أبرزها مؤسسة القيادة رمز السلطة المحلية التي أثرت تجاوز فضائها القديم والتكيف مع الواقع الاستعماري الجديد.

[23] إتيان Etienne: جنرال فرنسي تولى قيادة الجيوش القادمة من سوسة لاحتلال مدينة القيروان سنة 1881.

وبالإضافة إلى الأجهزة الإدارية، اختزل هذا الفضاء كذلك مجمل الأنشطة التجارية والخدماتية الحضرية الحديثة التي كانت وثيقة الارتباط بالحضور الاستعماري بالمدينة. فانتشرت داخله المغازات العصرية التي تخصصت في بيع المنتوجات الأوروبية المستوردة التي أغرقت الأسواق المحلية. ووجدت كذلك المقاهي والحانات والنزل الفخمة على غرار نزل السبلانديد ونزل فرنسا. كما توفرت أيضا المؤسسات المالية (الفروع البنكية) التي جسدت سيطرة رأس المال الأوروبي الاستعماري على دواليب الاقتصاد المحلي.

نزل السبلانديد، فضاء يعكس نمط عيش جديد وعصري ونمط معماري أوروبي يجسد سيطرة المستعمر

أصبح هذا الحي الأوروبي فضاء سكنيا راقيا ومريحا [24] احتضن أهم التشكيلات الاجتماعية الجديدة أي العائلات الأوروبية الثرية والمتنفذة وكذلك بعض النخب المحلية وأيضا أعيان الجهات المجاورة الذين رأوا في التقرب من فرنسا ومحاكاة نماذجها المعمارية العصرية بمثابة السبيل الوحيد والكفيل للمحافظة على امتيازاتهم المادية وحضوتهم الاجتماعية. وإبراز لمكانتها الاجتماعية وإمكانياتها المادية

[24] Despois (J.), La Tunisie orientale... Op.cit, p.482.

أقامت هذه العناصر الاجتماعية لنفسها المساكن الرافهة والتي تنوعت بين المنازل ذات الطوابق المتعددة والفيلات الفخمة [25].

هذا وقد استجاب هذا الفضاء إلى إملاء الحياة العصرية باحتواءه للعديد من الفضاءات ذات الصبغة الترفيهية والثقافية والتي مثلت أمكنة أساسية لتسلية وإمتاع الأوروبيين. وقد تنوعت هذه الفضاءات التي عملت على توطيد سيطرة المستعمر بين أماكن التنزه والتجوال كالحدائق العمومية (حديقة بيشون – حديقة كارنو...) التي تخللتها النصب التذكارية لأبرز الشخصيات السياسية الفرنسية وبين أماكن الفرجة كقاعات السينما (قاعة سينما باريس) [26].

ولعل أبرز المعالم التي جسدت مركزية هذا الفضاء داخل النسيج الحضري وبالتالي نجاح السياسة الاستعمارية بالمدينة هو مبنى الكنيسة الكاثوليكية الذي تركز سنة 1913 بقلب الحي الأوروبي مواجهها لجامع عقبة بن نافع الذي يعمل جاهدا على الدفاع عن فضاء تقليدي يقع بالطرف المقابل سجين أسواره، بدا منهكا بالمتاعب وفاقدا لكل توازن.

25 Saladin (H.), Tunis...Op. cit, p. 108.

26 Santelli (S.), Tunis, le creuset Méditerranéen, édition Demi- cercle, CNRS, Collection La ville, Paris, 1995, p. 68.

حول الحدائق العمومية ودورها في إضفاء طابعا فرنسيا على المدن التونسية خلال الحقبة الاستعمارية، أنظر:

-Zhioua (I.), «Les jardins publics en Tunisie, Conditions ou conséquences de la construction sur le mode occidental.», étapes de recherches en paysage, n° 4, ENSP, Versailles, 2002, p.p. 7-23.

الكنيسة الكاثوليكية: رمز الديانة المسيحية بالمدينة

فعلى نقيض هذا الفضاء الاستعماري الجديد الذي دخل مسار التطور والصعود، دشن الفضاء التقليدي منذ انتصاب الحماية مرحلة من التراجع بلغت حد الركود والجمود. ومظاهر هذا التقهقر عديدة ومتنوعة ويتمثل أبرزها في:

- توقف الحركة المعمارية وتفاقم ظاهرة تداعي المباني وانتشار الخرب والأوساخ وتفشي الأوبئة وكذلك تدهور الوضع الأمني بداخله [27].
- تصدع قواعد تنظيمه المتداولة المرسومة منذ القدم وذلك إثر حلول أجناس جديدة (الأوروبيون واليهود) لم تبالي بالأعراف المرتبة للسكن ولتوطن الأنشطة التجارية وقد ساهم حضورها في خلق مشاكل على مستوى التعايش اليومي. فهؤلاء الوافدون الجدد قد نجحوا في "التسلل" إلى الفضاءات الخاصة بالأهالي المسلمين والتعاطي داخلها أنشطة خالفت النواميس والأعراف التي تضبط السكان المحليين مثل بيع الخمر ولعب القمار وممارسة الدعارة ... هذا بالإضافة إلى ممارسة انشطتهم خارج أطرها التقليدية المتعارف عليها (الأسواق)، داخل الأحياء السكنية بمنازل كانت محل شبهات [28].
- تدهور مؤسساته الإدارية التقليدية المشرفة على تسييره والتي فقدت كل تأثير لها وتحولت تبعا لذلك إلى هياكل تابعة للأجهزة الاستعمارية الحديثة. فمؤسستي القيادة والمشيخة قد أصبحتا تحت إمرة المراقبة المدنية. أما بعض أمناء المهن مثل أمين المعاش فقد الحقوا وادمجوا كليا بالمؤسسات العصرية على غرار المؤسسة البلدية. في حين أن بقية الخطط الأخرى كاللواجة وقايد الشوارع قد ألغيت نهائيا ولم يبقى لها أثر.

---

[27] أ.و.ت، السلسلة E، صندوق 621، ملف 6، م. فرعي 1، وثيقة 1، مراسلة أهالي المدينة إلى عاملها على المرابط بتاريخ 19 جوان 1894.

[28] أ.و.ت، السلسلة أ، صندوق 85، ملف 1، م. فرعي 3، وثيقة 23، مراسلة عامل المدينة إلى الوزير الأكبر بتاريخ 16 فيفري 1904.

- تراجع حركية أسواقه التي شهدت في ظل تأزم قطاع الحرف إفلاس وتداين أغلب تجارها حرفييها وغلق معظم دكاكينها وتحول قسم هام من المخازن والفنادق الواقعة بها إلى مقاه وفضاءات مخصصة للسكن الجماعي [29].
- فقدانه لأبرز نخبه وتشكيلاته الاجتماعية أي العائلات "البلدية" النازلة داخله منذ القدم والتي تراجعت هيبتها وحضوتها المادية والمعنوية فاضطرت إلى الهجرة للمدن المجاورة بحثا عن فرص عيش أفضل. ومقابل خروج هذه العائلات التقليدية، شهد هذا الفضاء حلول – وبأعداد غفيرة – جماعات جديدة ذات أصول قبلية متواضعة عمقت أزمته وأضفت عليه طابعا من التريف [30].
- تقلص عدد أحيائه (إلغاء مشيخة حومة الممر سنة 1896) [31] وتراجع طابعه المعماري العربي الإسلامي في ظل تزايد عدد المباني المشيدة على النمط الأوروبي. فالدكاكين قد عوضت بالمغازات العصرية. أما الدور ذات الطابق الواحد قد حلت محلها المنازل ذات الطوابق المتعددة والنوافذ المطلة على الأنهج والشوارع [32].

ورغم عمق هذه الأزمة التي أصبح يتخبط فيها هذا الفضاء، فقد كان تدخل الإدارة الاستعمارية للحد منها محتشما وبسيطا. بل وأبعد من ذلك، فقد انطوى هذا التدخل على خلفيات خطيرة كان هدفها تحنيط هذا الفضاء وتحويله إلى مزار للسياح. وهو ما يعني بالتالي تعميق الفجوة القائمة بينه وبين الفضاء الأوروبي الجديد المجاور والمقابل له.

---

[29] ا.و.ت، السلسلة أ، صندوق، 85 ملف، 1 م، فرعي، 20 مراسلة على المرابط عامل المدينة إلى الوزير الأكبر بتاريخ 4 أوت 1900.

[30] Despois(J.), «Kairouan. Origine et évolution d'une capitale Musulmane», Annales de Géographie, 1930, p. 170.

[31] أ.و.ت، السلسة أ، صندوق، 84 ملف، 1 م، فرعي 1. وثيقة 10 مراسلة على المرابط عامل المدينة إلى بوعتور الوزير الأكبر بتاريخ 27 جوان 1896.

[32] أ.و.ت، السلسلة أ، صندوق 82 ملف 8، وثيقة، 1 مراسلة المراقب المدني إلى الكاتب العام الحكومة التونسية بتاريخ 29 أفريل 1920.

ففي مرحلة أولى، اقتصر هذ التدخل على تحسين واجهته وتجميلها وذلك من خلال تزويده بالماء الصالح للشراب وبالإنارة وإحداث شبكة تطهير تحتية وتبليط طرقاته وترصيفها وغرس حاشيتها بالأشجار. هذا بالإضافة إلى توسعة أبوابه وإحاطته بالشوارع العريضة التي ضيقت عليه الخناق وزادت من عزلته.

اما في مرحلة ثانية، فكان الحرص على تأمين طابعه التاريخي وذلك بسن جملة من الأوامر العلية تصنف أهم معالمه كأبنية أثرية وتحفظ الطابع المعماري الشرقي الأصيل لمعظم اجزائه.

خاتمة

مثل انتصاب هذا الفضاء العمراني الجديد بمدينة القيروان أبرز أشكال الهيمنة الاستعمارية على نسيجها الحضري. فقد جسد سيطرة المحتل وعكس انتصاره السياسي وتفوقه الرأسمالي وتقدمه الحضاري.

لقد اندرج تأسيس هذا الفضاء ضمن مشروع استعماري متكامل يهدف إلى تذويب جملة الخصوصيات الحضارية التي انفردت بها هذه المدينة التي كانت تعد المدينة الوحيدة بالايالة التي يمنع على غير المسلم دخولها أو حتى الاقتراب من أسوارها.

وإذا ما تمكن المستعمر من فتح أبوابها لدخول الأوروبيين واليهود، وإذا ما عمد إلى تدنيس مقدساتها و"تشويه" وتهميش موروثها الحضري، فهل نجح في طمس رمزيتها؟ هل فقدت القيروان أهميتها ومكانتها كعاصمة دينية وروحية للايالة التونسية؟

مهما يكن من أمر الهيمنة الاستعمارية، فقد حافظت القيروان على تلك المنزلة التي تبوأتها منذ تأسيسها.

فقد ظلت المدينة المقدسة ورمزا للهوية والذات والذاكرة المحلية.

الملاحق

الجدول رقم 1: تطور عدد الفضاءات التجارية والخدماتية الواقعة داخل الفضاء العمراني الجديد "الحي الأوروبي"

خلال الفترة الممتدة بين 1910 و 1956

الفضاءات الشوارع والأنهج	سنة 1910		سنة 1956	
	الفضاءات التجارية	الفضاءات الخدماتية	الفضاءات التجارية	الفضاءات الخدماتية
شارع ماسيكو Avenue Massicault	11	6	17	15
شارع بيشون Avenue Pichon	3	1	10	8
طريق سوسة Route de Sousse	-	-	15	10
طريق صفاقس Route de Sfax	4	2	7	7
نهج إتيان Rue Etienne	6	1	11	3
نهج ميشو Rue Michaud	3	2	5	4
نهج بريار Rue de Breard	2	1	5	3
المجموع	28	13	70	50

المصدر – أرشيف بلدية القيروان، دفاتر الأداءات البلدية، دفتري آداء معاليم الأكرية الموظفة على المباني الواقعة بالفضاء البلدي لسنتي 1910 – 1956.

جدول رقم 2: تطور عدد المباني السكنية الواقعة داخل الفضاء العمراني الجديد "الحي الأوروبي" بين سنتي 1910 و 1956.

الشوارع والأنهج	سنة 1910		سنة 1956	
	عدد المباني السكنية	القيمة الكرائية	عدد المباني السكنية	القيمة الكرائية (بالفرنك)
شارع بيشون	13	//	37	540.500
شارع المحطة	12	//	24	455.000
شارع الثكنة	5	//	10	231.750
نهج المراقبة	6	//	33	398.000
نهج لافيجيري	7	//	15	201.500
نهج إتيان	6	//	11	207.000
نهج البريد	3	//	13	239.000
نهج بريبار	4	//	22	133.500
المجموع	56	//	169	2406.250

المصدر نفسه.